خلف المنحدر

. عبد الرحيم الخصار .

سيّارة قديمة
تَنْزل ببطء في المنحدر
كذئب تسلَّل من وجاره
باحثًا عن فريسة.
عمّا قريب
سيَرْفع الضبابُ ملاءاته عاليًا
كي أرى جدرانَك تتهادى.
كم من الطرقاتِ عَبَرْتُ
كي أصلَ إليكِ يا «تنكرفا.»[1]
أصِل مثقلاً بأحلامي
إلى زوابعِك التي لا تنتهي
وأكماتِك الشائكة.
كان الغبارُ كثيفًا
وكانت الريحُ تدسُّ ترابَها
بين جيدي وياقةِ القميص.
جففتُ جسدي من التعب
وسرتُ مختفيًا
بين شجرِ الأركان،
أَرْشفُ الحرارة
كأني الوريثُ الوحيد
لهذه الشمس.
لم أعد قادرًا على المشي،
حقيبتي تقادمتْ في الطريق،
وحذائي مات من شدة العطش.
يَجْدر بي أن أتوقف قليلاً؛
ربما يَدْعوني أحدُهم
لأشربَ كأسَ لبنٍ باردٍ في الظلّ.
لم يعد في هذه القرية
سوى أشباحِ أناس
سَقَطوا من التاريخ.
على مدى العين
تمتدّ الأرضُ حقولاً
من التراب الأسودِ والحجر.
الغيومُ لم تعد تَقيل هنا.
المياهُ شاخت في الآبار؛
لذلك تترك بياضَ شعرها
عالقًا في جدار الكأس.
حسنًا أيها الفراغ
لستَ وحدَكَ هنا
أنا أيضًا أبحث عن أنيسٍ
أبحث عن خيوط
تردّ أقدامي عن الوادي،
أبحث عن يدٍ وديعة
تَنْفض الخوفَ عن ملابسي.
سأسير بمحاذاةِ الجدران
مغمَض العينين،
حالمًا بالأفلاج
حتى لا أفاجَأ بطبيعةِ أمر.

❖ ❖

مَنْ تكون هذه الشقراء ؟
ولِم تتكئ على جذع شجرة ؟
ربما أرْهقها المشيُ على التلّ
ربما أتعبتْها الطريقُ إلى قلبِ عشيقها.
إنها «توايا»
حاملةً الشايَ إلى المرعى؛
توايا البرشاء، حفيدةُ الجبل.
النساءُ هنا
مجردُ خادمات
يَحْملن القِرابَ والدِّلاء،
يَكْنسن الحظائرَ من بقايا الدواب،

---

١ ـ قرية جبلية بجنوب المغرب

يَغْسِلن الأسمالَ في البركة الجافة،
وفي الليل يَلجن الفراشَ
برائحة الحطب.
النساءُ هنا كومةُ برسيمٍ يابسة
يجرجرها حصانٌ أعمى.
أين شبابُ القرية؟
تشير امرأةٌ
إلى جبلٍ غائرٍ في السماء:
«عَبَروا من هناك
ذَهَبوا ليَجْلبوا الشتاءَ من الشمال.»
يقول عرّافُ القرية:
«بل حَزَموا أحلامَهم يا ولدي،
دَفَنوا اليأسَ في الأعتاب
وخرجوا باكراً
للصيد في بحارِ الجنوب.»

هؤلاءِ الشيوخُ الطيبون
ذوو الضحكاتِ الدرداء
هم قدماءُ حرب،
قامروا بحياتهم،
دَفَنوا الفرنسيين قديما
في مقابر جماعية.
وهذا العجوزُ المرابي
ذو اللحية الطويلة
والوجهِ المستعار
لطالما هَرَّبَ الحشيشَ... إلى الصحراء!

❖ ❖

في الليل في باحةِ الدار
وتحت شجرةِ ليمونٍ يتيمة
أختلي بديوان أو رواية،
أفتح كتاباً قديماً
وأَقْفز من نوافذه
إلى حكايا الأجداد.
أَجُول بلا دليلٍ في حدائقِ الموتى
وأصِلُ مدناً لم يصلْها جسدي،
أتعالى وحيدا
في عالمٍ يزدحم بالأنفاس.
أُغلق الكتاب
أَخْرج منه صاخباً
كما يَخْرج الجنينُ إلى ظلامٍ أشدَّ
أرشف القهوةَ السوداء
ناظراً بعيني إلى الخلف
حيث الضباب
يُنزل ملاءاتِه من جديد
منتظراً سيارةً قديمة
تَصْعد ببطءٍ خلف المنحدر.

المغرب